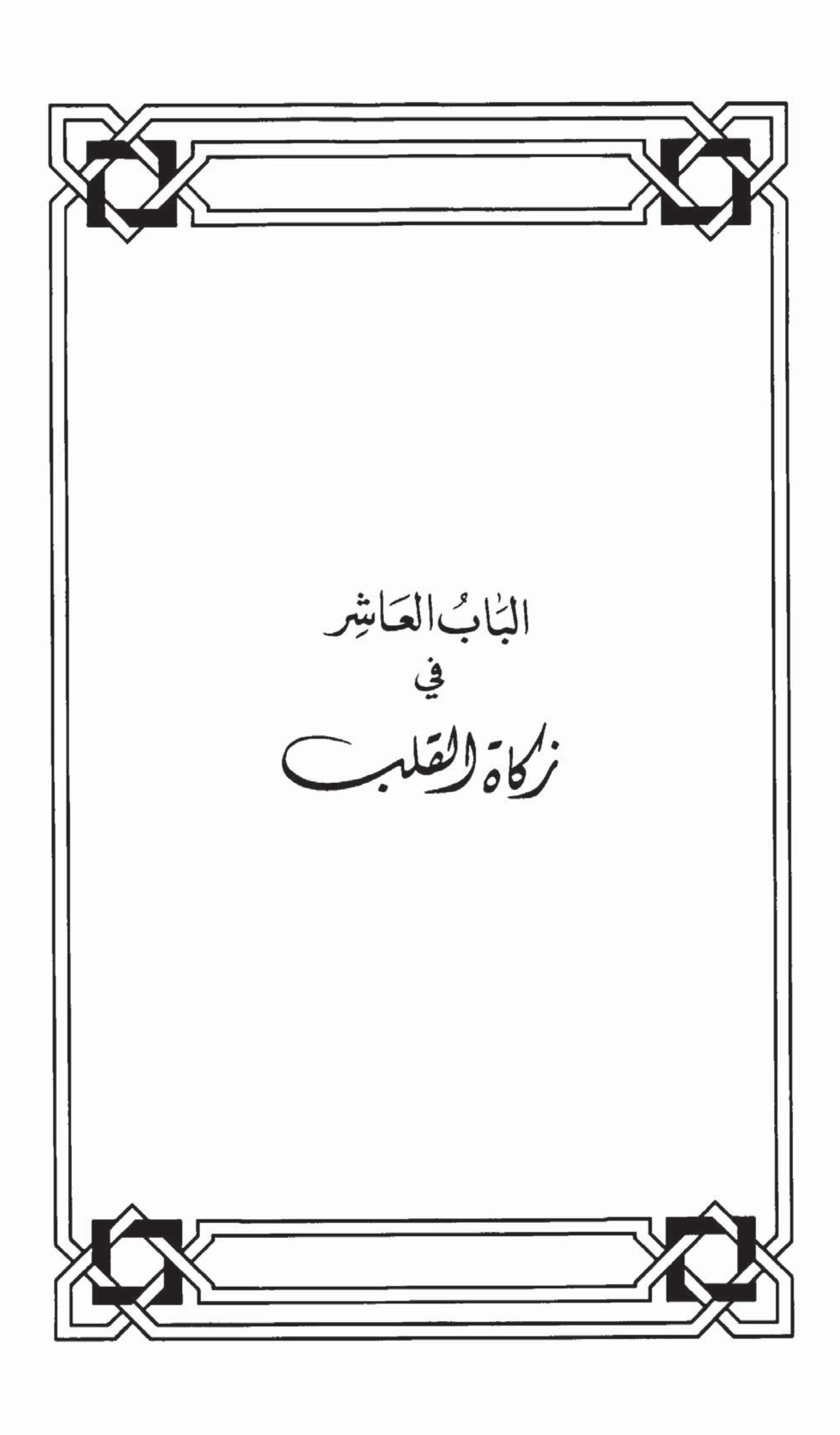


البَابُ العَاشِر
في
زكاة القلب



[معنى الزكاة]:

الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

فجمع بين الأمرين: الطهارة، والزكاة، لتلازمهما.

[الزكاة إنما تكون بعد الطهارة]:

فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغَل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد.

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: فزكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت. فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته؛ كما قال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج .

[فوائد غض البصر عن المحارم][1]:

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب، وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة ، والعين رائد القلب . فيبعث رائده لينظر ما هناك ، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله ، تحرك اشتياقاً إليه ، وكثيراً ما يتعب ويتعب رسوله ورائده ؛ كما قيل :

وكنتَ متى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً   لِقَلبكَ يَوماً أَتعبتْكَ المَنَاظِرُ
رَأيتَ الَّذي لا كلُّهُ أنتَ قَادرٌ   عَليهِ، وَلا عَنْ بَعْضِهِ أنتَ صَابرُ

فإذا كفَّ الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة ، فمن أطلق لحظاته دامت حسراته .

فإن النظر يولد المحبة . فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه . ثم تَقوى فتصير صبابة . ينصبُّ إليه القلب بكليته . ثم تقوى فتصير غراماً يلزم القلب . كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه . ثم يقوى فيصير عشقاً . وهو الحب المفرط . ثم يقوى فيصير شغفاً . وهو الحب الذي قد وصل إلى شَغاف القلب وداخله . ثم يقوى فيصير تَتَيُّماً . والتتيم : التعبد ، ومنه تَيَّمه الحب إذا عبَّده . وتَيم الله : عبد الله : فيصير القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون هو عبداً له . وهذا كله جناية النظر .

---

(١) هذه الفقرة والتي بعدها استطراد جرَّ إليه موضوع غض البصر المذكور في الآية الكريمة في آخر الفقرة السابقة .

فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيراً بعد أن كان ملكاً، ومسجوناً بعد أن كان مطلقاً. يتظلم من الطرف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لا بد له من التعلق بمحبوب. فمن لمن يكن الله وحده محبوبه، وإلٰهه ومعبوده، فلا بد أن يتعبد قلبه لغيره.

قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف لما كان مخلصاً لله نجا من ذلك مع كونه شاباً عَزَباً غريباً مملوكاً.

الفائدة الثانية: في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال أبو شجاع الكرماني: من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنّة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة.

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة.

وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغضّ أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غضّ بصره عما حرمه الله عليه عوضه الله من جنسه ما هو خير منه؛ فكما أمسك نور بصره عن

المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله.

وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها. فإذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله.

[ذل المعصية وعز الطاعة]:

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه. فإن الله سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي من كان يطلب العِزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح.

وقال بعض السلف: الناس يطلبون العز بأبواب ملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله.

وقال الحسن: وإن هَمْلَجتْ بهم البَراذين، وطَقْطَقَتْ بهم البغال؛ إنَّ ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله عز وجل إلا أن يُذِلَّ من عصاه، وذلك أن

من أطاع الله فقد والاه. ولا يذل من والاه ربه، كما في دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت».

[زكاة القلب موقوفة على طهارته]:

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك.

وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨].

فإنهم إذا أُمروا بالرجوع لئلا يَطَّلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يُطَّلَع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن ردَّ البصر وغَضَّه أزكى لصاحبه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥].

وقال تعالى عن موسى في خطابه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦ ـ ٧].

قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلٰهية

ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلـهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً.

فأصل ما تزكو به القلب والأرواح: هو التوحيد.

[الفرق بين تزكية النفس وبين الإخبار عن ذلك]:

والتزكية جعل الشيء زكياً.

إما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه.

كما يقال: عَدَّلته وفَسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، هو على غير معنى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي لاتخبروا بزكاتها، وتقولوا: نحن زاكون صالحون مُتقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

وكان اسم (زينب) (بَرَّة)؛ فقال: (تزكي نفسها)، فسماها رسول الله ﷺ (زينب) وقال: «الله أعلم بأهل البر منكم»[1].

وكذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ [النساء: ٤٩]، أي يعتقدون زكاءها ويخبرون به، كما يزكي المزكي الشاهد، فيقول عن نفسه مايقول المزكي فيه، ثم قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩] أي هو الذي يجعله زاكياً، ويخبر بزكاته.

وهذا بخلاف قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، فإنه من باب

(١) أخرجه مسلم (٢١٤١، ٢١٤٢).

قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات: ١٨]، أي تعمل بطاعة الله، فتصير زاكياً، ومثله قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

[معنى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾][(١)]:

وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله: (زكاها) فقيل: هو لله. أي أفلحت نفس زكاها الله، وخابت نفس دسَّاها، وقيل: إن الضمير يعود على فاعل (أفلح) وهو (مَنْ) سواء كانت موصولة أو موصوفة، فإن الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال: قد أفلح من زكاه وقد خاب من دسّاه.

والأولون يقولون (من) وإن كان لفظها مذكراً فإذا وقعت على مؤنث جاز إعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث، مراعاة للمعنى، وبلفظ المذكر مراعاة للفظ، وكلاهما من الكلام الفصيح، وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها، فالأول كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، فأفرد الضمير، والثاني كقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢].

قال المرجحون للقول الأول: يدل على صحة قولنا: ما رواه أهل (السنن) من حديث ابن أبي مُليكة عن عائشة قالت: أتيت ليلة، فوجدت رسول الله ﷺ يقول: (ربِّ أعطِ نفسي تقواها، وزكِّها، أنت خير من زكَّاها، أنت وليّها ومولاها)[(٢)]، فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية، وأن الله تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية، فالله هو المزكي، والعبد هو المتزكى. والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع قالوا: والذي جاء في القرآن من إضافة الزكاة إلى العبد إنما هو بالمعنى الثاني، دون الأول. كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، وقوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ؟﴾ [النازعات ١٨] أي تقبل تزكية الله تعالى لك، فتزكَّى؟.

---

(١) هذه الفقرة استطراد دعا إليه شرح الآية الكريمة.
(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٧٢٢).

قالوا: وهذا هو الحق. فإنه لا يفلح إلا من زكّاه الله، قالوا: وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس، فإنه قال في رواية ابن أبي طَلحة وعطاء والكلبي: قد أفلح من زكى الله نفسه.

وقال ابن زيد: قد أفلح من زكى الله نفسه، واختاره ابن جرير.

قالوا: ويشهد لهذا القول أيضاً قوله في أول السورة: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨].

قالوا: وأيضاً فإنه سبحانه أخبر أنه خالق النفس وصفاتها وذلك هو معنى التسوية.

قال أصحاب القول الآخر:[١] ظاهر الكلام ونظمه الصحيح: يقتضي أن يعود الضمير على (من) أي أفلح من زكى نفسه. هذا هو المفهوم المتبادر إلى الفهم، بل لايكاد يفهم غيره، كما إذا قلت: هذه جارية قد ربح من اشتراها. وصلاة قد سعد من صلاها. وضالَّة قد خاب من آواها. ونظائر ذلك.

قالوا: والنفس مؤنثة، فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام: قد أفلحت نفس زكاها، أو أفلحت من زكاها، لوقوع (مَن) على النفس.

قالوا: وإن جاز تفريغ الفعل من التاء لأجل لفظ (مَن) كما يقول: قد أفلح من قامت منكن، فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس، فإذا وقع الاشتباه لم يكن بدٌّ من ذكر ما يزيله.

قالوا: و(مَن) بمعنى الذي. ولو قيل: قد أفلح الذي زكاها الله لم يكن

---

(١) هم القائلون بعود ضمير (زكاها) إلى العبد.

جائزاً، لعود الضمير المؤنث على الذي. وهو مذكر.

قالوا: وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح إلى صاحب النفس إذا زكى نفسه. ولهذا فرغ الفعل من التاء، وأتى بـ(مَن) التي هي بمعنى الذي، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، حتى أصحاب ابن عباس.

وقال قتادة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ مَنْ عمل خيراً زكاها بطاعة الله عزَّ وجلّ، وقال أيضاً: قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله.

قال ابن قُتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي نماها وأعلاها بالطاعة والبِرِّ والصدقة، واصطناع المعروف: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي.

والفاجر أبداً خفي المكان، عديم المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس. فمرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها، ومصطنع المعروف قد شهر نفسه ورفعها.

وكانت أجواد العرب تنزل الرُّبَى ويَفَاعَ الأرض[1] لتشهر أماكنها للمُعْتفين[2] وتوقد النار في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأوْلاج والأطراف والأهضام[3] لتخفي أماكنها على الطالبين، فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبوَّابُ بيتِك في مَعْلَمٍ رحيبِ المباءة والمسرحِ
كفيتَ العُفاة طِلاب القِرى ونبحَ الكلاب لمستنبحِ

(١) أي مرتفعاتها.
(٢) العافي والمعتفي: كل طالب رزق من إنسان وغيره.
(٣) المراد: المنخفض من الأرض.

فهذان قولان مشهوران في الآية .

وفيها قول ثالث : أن المعنى : خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم ، حكاه الواحدي ، قال : ومعنى هذا : أنه أخفى نفسه في الصالحين ، يُرِي الناس أنه منهم وهو منطوٍ على غير ما ينطوي عليه الصالحون .

وهذا ـ وإن كان حقاً في نفسه ـ لكن كونه هو المراد بالآية نظر ، وإنما يدخل في الآية بطريق العموم . فإن الذي يدس نفسه بالفجور إذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم . والله تعالى أعلم .

* * *